المشرق

التذكار المئوي الرابع

لوفاة لاوون العاشر . لنشأة لوناروس بالاصلاح

ولارتداد اغناطيوس دي لويولا

في مثل هذه السنة حدثت في اوربّة ثلث وقائع كان لحدوثها في التاريخ صدًى لا يزال يُسمع رنينهُ الى يومنا هذا . نزيد بها وفاة لاون العاشر الذي اليهِ نُسب القرن السادس عشر ونهضتهُ الادبيَّة . ثم عصيان الراهب الاوغسطينيّ لوناروس الذي مزّق البراءة البابويَّة القاضية في شَذْبِهِ وحرمهِ . ثمَّ ارتداد اغناطيوس دي لويولا الى الله وتخصيص نفسهِ الى خدمتهِ تعالى قبل انشائهِ للرهبانيَّة اليسوعيَّة . تلك هي الامور الجليلة التي احببنا ان نلخّص ذكرها في هذه الصفحات

١ وفاة لاون العاشر

انطفأ هذا السراج الوهّاج في غرَّة كانون الاوَّل سنة ١٥٢١ في عاصمة مملكتهِ رومية وهو في عزّ كهولتهِ لا يتجاوز عمرهُ ستًّا واربعينسنةً بعد ان أنار بضيائهِ اللامعة العالم الكاثوليكي على السدَّة البطرسيَّة ثماني سنين وبضعة اشهر فقط . فكان خبر وفاتهِ كضربة قاضية أُصيب بها اهل رومية بل دهمت سائر ايطالية والكنيسة الجامعة وعالم الآداب معاً

كان اوّل سطوع هذا الكوكب المنير في فلورنسة حاضرة بلاد توسكانة في ايطالية وذلك في ١١ كانون الاوَّل ١٤٧٥ من أُسرة طبَّقت شهرتُها المعمور من آل مديشيس

انصار الفنون الجميلة وسائر المعارف البشريَّة فكانهُ اقتبس من اسرتهِ ومن وطنهِ نور مجدهما الاثيل

عُني ابوه امير فلورنسة لوران دي مديشيس الملقَّب بالفخيم (Laurent le Magnifique) بتخريجهِ في كل آداب عصرهِ فاختار لهُ اوسع الاساتذة علماً واتقنهم عقلاً كبوليسيان وخلقندبل ومرسيل فيسان (Marsile Ficin) وبيك دي لا ميرندول فنشأ جان مزدانًا بهمَّتهم بالعلوم والآداب مشارًا اليهِ بالبنان لذكاء عقلهِ ووفرة معارفهِ وحسن سيرتهِ مع غضاضة سنهِ فرقَّاهُ البابا اينوشنسيوس الثامن الى رتبة كردينال وهو في الثانية عشرة من عمرهِ اعترافاً بفضل الولد وشكرًا لوالدهِ لما ادَّاهُ للكنيسة والدين من الخدم الجليلة. لكنَّهُ فرض على الولد قبل ان يتشح بالبزَّة الكردينالية الرسميَّة ان يواصل دروسهُ ويضيف الى علومهِ المدنيَّة دروس العلوم الدينيَّة في كليَّة پيزة مدَّة ثلث سنوات ففعل ونال فيها كلَّها قصبة السبق مع شهادات معلِّميهِ الناطقة بنجاحهِ ورقيهِ. فلبس الارجوان في مدخل شبابهِ واعرب عن اقتدارهِ بما القاهُ مذ ذاك الحين من الخطب على المنابر. فاهتزَّت مدينة فلورنسة طرباً لدى نظرها ابن اميرها منظوماً في سلك امراء الكنيسة واقامت لتهنئتهِ مواسم فاخرة وصفها الكتبة وصفاً شائقاً وتنبَّأوا لهُ بالجلوس يوماً على عرش البابويَّة

لم يفرح الامير لوران زمناً طويلاً بارتقاء ابنهِ الى منصب الكرادلة فانَّ الموت عاجلهُ فودَّع الحياة مزوَّدًا باسرار الدين معلناً بشديد تعلُّقهِ بايمانهِ (١٤٩٢). وكان آخر كلامهِ وصاةً لابنهِ الكردينال بمرأة حنانًا وحكمةً يرشدهُ فيها الى كلّ واجباتهِ الدينيَّة والدنيويَّة ويحذرهُ مما يحيد بهِ عن الصلاح

كان موت لوران مديشيس داعياً لانقلاب الامور على ذريَّتهِ فان بعض اعدائهِ وفي مقدَّمتهم راهبٌ مُتقشِّفٌ يدعى سفانارول (Savanarole) هيَّجوا عليهم الشعب فنفي اياديهم اليهِ وهجم على املاكهم ونهب اموالهم وبخس حقوقهم واضطرَّهم الى الفرار من وطنهم

وكاد الكردينال جان مديشيس يهلك في هذه المشاغب لكنَّهُ نجا بنعمةٍ خاصَّة من الله والتجأ الى بلاط بعض امراء ايطالية اصدقاء اسرتهِ الجليلة فكان لهُ المنفى نعم المدرسة لترويض اخلاقهِ واكتساب الفضائل الخاصَّة بالرجال المتمكنين ذوي

لاون العاشر (١٥١٣–١٥٢١)

رفائيل المصوّر الشهير († ١٥٢٠)

العود المُعجَم . وبعد ان قضى عند مضيفيه نحو سنتين احبَّ ان يتجوَّل في انحاء اوربَّة ليزور عظماءها ويفتقد ما فيها من الآثار والفنون الجميلة . واذ كان اسم المديشيس شائعاً في كلّ اقطارها وجد الكردينال حيثما سار اطيب مثوى وارحب منزل فطاف في مدن النمسة والمانية وهولندة وفرنسة يتفقّد ما في كلّ منها من المجاسن والمتاحف والمخطوطات العزيزة الوجود ثمَّ ابحر الى رومية فأقام في احد قصورها معتزلًا الامور السياسيَّة ومنقطعاً الى الدرس والمطالعة وجَمْع التُّحَف الفنيَّة لاسيَّما المخطوطات القديمة التي كان انتهبها الفلورنتيُّون من مكتبة والده فابتاعها وزيَّن بها داره الكردينالية . فما لبث ان توارد عليه رجال العلم ومحبُّو الآداب فكان يأنس بهم ويدعوهم الى مائدته فاضحى قصره ناديًا علميًّا أحيا به ذكر تزما جدّ الشهير ولوران الفخيم والده حتَّى عادت فلورنسة فحسدت رومية لازدهار الفنون فيها باحد ابنائها الذين كندت نعمتهم . ومذ ذاك الحين تألَّف فيها حزبٌ لردّ السلطة الى آل مديشيس بمساعي بعض زعمائها

قضى الكردينال مديشيس في رومية خمس عشرة سنة حائدًا عن السياسة ملازماً خدمة الكنيسة والآداب مدَّة ملك البابا اسكندر السادس وخلفه يوليوس الثاني وهو فائز بالحظوى لديهما لسعة فهمه وشهرة اسرته ولأسفهما على آله لما حلّ بهم من المصائب على خلاف استحقاقهم

وكان يوليوس الثاني سليل أسرة معادية لاسرة مديشيس الَّا انَّهُ عدل عن صوت اللحم والدم وقدَّر الكردينال جان مديشيس حقَّ قدره . وفي السنة ١٥١١ عهد اليه امر بعثةٍ على مدينة بولونية التي كانت رفعت لواء العصيان على الحبر الاعظم فسار اليها بقلبٍ اصمَّ من الجلمود وكاد يكسر شوكتها لولا انَّ اهلها التجأوا الى لويس الثاني عشر ملك فرنسة الذي كان اذ ذاك يحاول بسط سلطته على ايطالية الشماليَّة فحدثت وقتئذٍ وقائع تشيب لها الاطفال بين جنود البابا وحلفائه الاسبانيين وبين الفرنسويين والمنتمين اليهم من الالمان وكان الظفر في اوَّل الامر حليف ملك فرنسة رغماً عمَّا ابداهُ البابويُّون من البسالة والحماس تحت قيادة الكردينال دي مديشيس الذي كان في مقدَّمة الجيش بلا دروع ولا سيفٍ ينفخ في القلوب روح النخوة والحميَّة الى ان وقع اسيرًا في ايدي الفرنسويين . الَّا انَّ امور الحرب ما لبثت ان دارت دولابها فقُتل في

حومة الوغى غستون دي فوا (G. de Foix) بطل عصره المغوار ورأى الفرنسويون انَّ انتصارهم لا يجديهم نفعاً فعادوا الى اوطانهم والكردينال دي مديشيس في أسرهم لكنَّهُ نجا من ايديهم بنوع عجيب وعاد الى رومية فصار لهُ فيها استقبال الجندي الباسل والعبد الامين وعظُم في اعين جميع اهل ايطالية حتَّى انَّ العُصاة عادوا بواسطتهِ الى الطاعة وفتح كثيرون من الامراء ابواب مدنهم للجيوش البابويَّة

وكانت فلورنسة من جملة المدن التي أحنقت عليها الكرسي الرسولي لميل سودريني صاحبها الى الفرنسويين فانتهز انصار أسرة مديشيس هذه الفرصة فزحفوا عليها ودخلوها عنوةً واسروا سودريني واخذوا يعملون السيف في اهلها لولا ان الكردينال جان دي مديشيس توسَّط بين المدينة وفاتحيها ونال لمواطنيهِ الامان . فعادت الاسرة المديشيَّة الى عزِّها السابق وملك على فلورنسة جوليان اخو الكردينال وخلفهُ من بعدهِ آلهُ الى اواخر القرن السابع عشر

اما الكردينال جان فانتدبهُ الحبر الاعظم لمهامَّ جديدة وجعلهُ حاكماً على مدينة بيروزة فجمع في تدبيرها بين الحزم واللين واكتسب رضى الجميع

*

في ٢١ شباط سنة ١٩١٣ انتقل البابا يوليوس الثاني الى جوار ربِّهِ بعد جلوسهِ على كرسيِّ الخلافة البطرسيَّة احدى عشرة سنة عزَّز فيها سلطان الاحبار الرومانيين وانقذ ايطالية وطنهُ من نير الطامعين في ملكها وجعل على مفرق الكنيسة الكاثوليكيَّة تاجاً من البهاء زادها حسناً في اعين العالم باجمعهِ

اسرع الكرادلة فاجتمعوا لانتخاب خلفهِ فما مرَّت عليهم أيام قليلة حتَّى وقع الاختيار على جان مديشيس في ١١ آذار سنة ١٥١٣ حيث وجدوهُ كفوأ لتدبير الكنيسة وجديراً بالذبِّ عن حقوقها وقهر اعدائها وهو اذ ذاك شمَّاس انجيليّ فقط فسيم في ١٥ آذار كاهناً ثم اسقفاً في ١٧ منهُ وفي التاسع عشر جرت حفلة تتويجهِ برونق عظيم وتباشر بهِ عالم الدنيا والدين . واتخذ لهُ اسماً شرَّفهُ قبلهُ تسعة من الباباوات اولهم واعظمهم القديس لاون الكبير (٤٤٠-٤٦١) الذي خلَّص رومية مرَّتين من ايدي البرابرة الهونيين والفندالين وملكيها اتيلا وجنسريك . وقد شرَّف ايضاً هذا الاسم الثانية الذين اتسموا بهِ لكنَّ لاون العاشر فاق عليهم لجمعهِ كلّ

الصفات المتفرّقة فيهم فاستحقّ كبعض نوابغ الدنيا ان يزدان عصرهُ باسمهِ الكريم.

اشتهر لاون العاشر من ثلثة وجوه كرجل سياسة وكرجل دين ورجل ادب

﴿ رجل السياسة ﴾ تبوّأ ابن مديشيس السدّة البطرسيّة في زمن كانت ثلث دول كبيرة تطمع ببصرها الى ايطالية لتقتسم اصقاعها وهي المانية وفرنسة واسبانية لحقوق صادقة او فريّة تدّعيها لادراك امانيها . هذا فضلًا عن الجمهوريّات الايطاليّة الصغرى التي كانت تنوي توسيع حدودها وتخس حقوق الكنيسة الرومانيّة . فكانت تلك المطامع تجعل موقف الحبر الروماني حرجاً محفوفاً بالمخاطر . الّا انّ لاون العاشر عرف بحسن نظرهِ وحنكتهِ بالامور السياسيّة كيف يسلك مع الدول ليفوز باستقلال ايطالية . فانّهُ تصدّى لملك فرنسة لويس الثاني عشر واضطرّهُ بمساعدة مكسيميليان الاوّل ملك النمسة وعضد الجيوش السويسريّة الى ان يبرح ميلانو ومقاطعاتها . ثمّ خاف البابا من محالفة كادت تُعقد بين النمسة وفرنسة واسبانية وتتهدّد ايطالية فتمكّن بحذاقتهِ وحسن تدبيرهِ ان يمنعها ويصون موطنهُ والكرسيّ الرسوليّ معاً من هذه المخاطر الجديدة

ثمّ قام في فرنسة بعد لويس الثاني عشر فرنسيس الاوّل ابن اخيهِ (١٥١٥) فشبّت نيران جديدة تخوّف منها لاون العاشر وجعلت ايطالية تحت رحمة اعدائها فسعى البابا باطفاء سعيرها لكنّ فرنسيس الاوّل قهر كلّ القوّات المتحالفة لردّ غاراتهِ وبسط ملكهُ على ميلانو وتوابعها . فلم يقنط البابا من امرهِ بل اجتمع في بولونية بملك فرنسة وعقد معهُ معاهدةً خوّلت الحبر الاعظم سلطة فعليّة ونفوذاً اعظم في رعاية الشعوب الكاثوليكيّة لاسيما في ايطالية وفرنسة

ولمّا عاد لاون الى رومية حاول تمكين سلطانهِ في عدّة مدن ايطاليّة كان امراؤها يتصرّفون فيها على هواهم ولا يكترثون لاوامرهِ ونواهيهِ . فانتزع مدن اوربينو وبيروزه وپارمة من ايدي طغاتها وسلّمها لعمّال امنا . واستنفد الوسع في بسط السلم والامان في انحاء البلاد

ثمّ خلف في المانية مكسيميليان حفيدهُ كرلوس الخامس سنة ١٥١٦ وقد كان سابقاً ورث فردينندَ الكاثوليكيّ سنة ١٥١٦ بملكهِ على اسبانية فجمع على رأسهِ تاجي المانية واسبانية . وما عتّم ان وقع بينهُ وبين فرنسيس الاوّل منازعات وحروب

دامت ثلثين سنةً وابتدأت على عهد لاون العاشر فاصابهُ منها هموم كدَّرت صفاء حياتهِ لطموح بصر كليهما الى ايطالية هذا الى جنوبها وذاك الى شمالها وهما يطلبان جميعاً من الحبر الاعظم نعمة الامبراطورية الرومانيَّة وامتيازاتها . فكان البابا يضطرّ حيناً الى مجاراة الواحد وحيناً الى مجاملة الآخر لئلا ترجح كفَّة ميزان احدهما فيصبح خطراً على البلاد وعلى الممالك البابويَّة . على انهُ في آخر الامر نفر من عُنجهيَّة ملك فرنسة فانحاز الى كرلوس وفي اثناء ذلك مات بعد ظفر حلفائهِ

وكانت غاية ما يقصدهُ لاون العاشر من حروبهِ ان يمنع بلادهُ بالسلم والراحة ويكسر نير الاجانب فيجعل ايطالية مستقلَّة باميرها قويَّة باتحاد عواملها مع اكبر مالكها وحُماتها اعني الحبر الروماني

وكانت هذه الغاية القريبة يوجهها لاون الى غاية اسمى واعظم وهي ان يجمع كلّ قوى الدول المسيحيَّة ويربطها بروابط محكمة لردّ غارات الاتراك الذين كانوا يتقدَّمون كلّ يوم الى نواحي الدول النصرانيَّة ويتهدَّدونها من كلّ صوب بعد ان فتح سليم الاوَّل بلاد الشام ومصر ورودس وتقرَّبت جيوشهم من المجر والنمسة . وكانَ الملوك الاوربيّين ساهون عن ذاك الخطر المُجحف على خلاف الاحبار الرومانيين الذين كان جلُّ مسعاهم ايقاف العثمانيين عند حدودهم لا بل كسر شوكتهم وثلّ عرشهم . ومن يطَّلع على كتابات لاون العاشر الى كافَّة الملوك والامراء في المانية وانكلترة واسبانية وفرنسة والمجر وسويسرة والبندقيَّة وجنوة يأخذهُ الاندهاش لصوت ذاك النفير الذي يبعث ملوك النصرانيَّة من جمودهم ويوقظهم من سِنَتهم . وقد بلغ بهِ حبُّهُ لخلاص النصرانيَّة الى انهُ دعا اهل رومية الى طواف ديني مثلي هو فيهِ حافياً ليناله من الله رحمتهُ وقهر اعداء كنيستهِ وكذا فعل بعدهُ خلفاؤهُ الى ان وجد ندآؤهم صدًى في قلوب الملوك فاتحدوا مع الكرسي الرسولي وانقذوا اوربَّة من همجيَّة بني عثمان بانتصاراتهم عليهم في ڤينَّة وبودابست وليبانت

﴿ رجل الدين ﴾ لم تكن امور السياسة لتصرف نظر لاون العاشر عن شؤون الدين بل قل انهُ لم يقصد من سياستهِ الَّا الدفاع عن حياض الدين اذ انهُ رأى خطراً كبيراً على استقلال الكنيسة الروحي لو فقدت استقلالها الزمنيّ كما ترى في البطريركيَّات الشرقيَّة التي اصبحت آلةً في ايدي الملوك والسلاطين بفقد حرّيتها

ولنا اوّلًا عدّة شواهد تثبت ما طُبع عليهِ لاون العاشر من روح التقى والحماس في الدين . فهذا مجموع رسائلهِ البابويّة التي تنطق كلها بتفانيهِ في سبيل الدين ويفقد كلُّ سطرٍ منها اكاذيب البروتستانت في المانية واشاعاتهم في حقّهِ

ومن الخدم الجليلة التي ادّاها لاون العاشر للكنيسة جمعهُ مواصلتهُ لاعمال المجمع المسكوني السابع عشر وهو الخامس من مجامع الكاتدرا اللاترانيّة كان باشر بهِ سلفهُ يوليوس الثاني سنة ١٥١٢ فعُقدت بهمّة لاون عدّة جلسات وُضعت فيها قوانين حسنة للإصلاح الحقيقي لآداب المؤمنين والاكليروس وبها بطل سلفاً مدّعى لوناروس لاصلاحهِ الموهوم . وفي هذا المجمع قُطع دابر الانشقاق الذي احدثهُ بعض الكرادلة في پيزة فأنابوا الى الله وجاؤوا خاضعين لراعي الكنيسة . وفيهِ ايضاً أُثبت رسميًّا مشروع خيري كان انشأهُ راهب فرنسيسي يُدعى برنردان ليقرض العَمَلة والفقراء مالًا في ضيقتهم بدلًا من رهن يرهنونهُ ريثما يردُّون المال فيسترجعون المرهون بجملة زهيدة يؤدونها وبذلك ينجون من ربى اليهود الفاحش البالغ ٢٠ الى ٥٠ بالمئة . وكان ختام هذا المجمع في آذار سنة ١٥١٧ بعد اتفاق الآباء على وضع بعض الرسوم لمحاربة الاتراك وتقييد الطباعة بقوانين تكبح جماحها وتحصرها ضمن حدود الأدب

والى هذا البابا يعود الفضل بانشائهِ في رومية ملاجئ للفتيات التائبات ومطاعم مجّانيّة لفقراء المدينة . ومن مآثرهِ الدينيّة اهتمامهُ العظيم بالرتب الدينيّة لتُقام على منوال اهلٍ بجلالهِ تعالى لاسيّما رُتب جمعة الآلام التي كان يتزاحم الزوّار من كلّ الانحاء لحضورها . وكذلك كان من السُعاة في تنظيم الموسيقى الدينيّة والحانها الشجيّة . كما انّهُ انهض الدروس اللاهوتيّة في كليّة رومية المعروفة بمدرسة الحكمة (la Sapience) فاختار لها ثلاثة من اساطين ذلك العلم الجليل ورقّى بعض اللاهوتيين الى رتبة الكرادلة واعدَّ منذ ذاك الحين اختصاصيين اشتهروا بعدئذٍ في المجمع التريدنتيني

واظهر لاون عنايةً خاصّة في نشر الدين في البلاد الاميريكيّة والجزائر المكتشفة حديثاً في العالم الجديد بين شعوب تلك المجاهل السحيقة . ولم ينسَ كنائسنا الشرقيّة كما يلوح من براءاتهِ الاحدى عشرة المرسلة لبطاركة الموارنة ولساقفتهم وشعبهم

ولا يسعنا ان نسكت عن نشاطهِ العجيب في تشييد كنيسة مار بطرس التي كان

باشر ببنائها اسلافهُ فكان لهُ في متابعة العمل سهمٌ عظيم كما تشهد عليهِ حتَّى اليوم عدَّة تحف تزين ذاك البناء المعدود بين عجائب العمور

هذه بعض مآثر لاون العاشر في جانب الدين من شأنها ان تُفحم المتشدّقين من الشيع البروتستانيَّة الذين صوَّروهُ في كتاباتهم كرجل فنونيّ عالميّ لا يكترث لخدمة الدين ولصوالح الكنيسة

﴿رجل الآداب﴾ قد اعتاد المعادون للكنيسة ان ينبزوا ذويها بالجهل ومناهضة العلوم . لعمري انَّ تلك دعوى باطلة يردُّها تاريخ الكنيسة من اوَّل ظهورها في العالم الى اليوم . وقد امتاز خصوصاً الاحبار الرومانيُّون بحفظ الآداب ورفع منارة العلوم في كلّ اجيالهم

على انَّ لاون العاشر قد لاح في سماء الكنيسة ككوكب درّي ونجم ساطع النور فاق سلفاءهُ بنشر لواء المعارف والفنون الجميلة . وقد سبق انهُ رضع منذ صباه فاويق العلوم وعشق الآداب ولم يزل متشبثاً باهدابها الى زمن رقيهِ الى منصب الخلافة البطرسيَّة . فلمَّا ألقيت اليهِ مقاليد الكنيسة الجامعة رأى ان تعزيز المعارف احد واجباتهِ كتعزيزهِ للدين ليجريا في ميدان التمدُّن كفرسي رهان لا يفرق بينهما حاجز

واوَّل ما صنع لاون لنشر لواء العلوم انهُ دعا اليهِ مشاهير زمانهِ واقرَّهم في اصتهِ رومية وجعل لهم رواتب واسعة تغنيهم عن هموم المعاش وكثيراً ما كان يدعوهم الى البلاط الفاتيكاني ويقضي معهم ساعات الفراغ ويعيّن لكلّ منهم ما يراهُ مناسباً لمعارفهِ

فتهافت الى رومية جمهور من العلماء والأدباء والشعراء والخطبة والمؤرخين اصبحت بهم رومية كمتدى العلوم جماء ومركز كلّ الفنون

ومن الادلَّة الناطقة بفضلهِ تنشيطهُ للطباعة التي كان الحبر الروماني يولس الثاني دعا اصحابها الى رومية منذ السنة ١٤٦٦ فجعلهم تحت حمايتهِ فصدرت من مطابعها كتب دينيَّة وادبيَّة لا يُحصَل عليها اليوم الَّا بشقّ النفس والمبالغ الطائلة . فوسَّع لاون نطاقها وعُني باصورها المادّيَّة والادبيَّة وجعلها تحت نظارة اليونانيّ الشهير جان لسكاريس وجهَّزها بكل الادوات اللازمة وسعى باستحضار حروف عبرانيَّة وكلدانيَّة وسريانيَّة وما لبثت بعد قليل أن اصدرت مطبوعات جديدة قدماء كتبة

الرومان واليونان مع ترجمات عديدة للكتاب المقدّس من العهدين العتيق والحديث ولاسيّما المزامير والاناجيل

وممّا ساعد نشر العلوم والمعارف المكتبةُ الفاتيكانيّة فانّ لاون اضاف اليها مخطوطات مكتبتهِ الخاصّة وابتاع لها كتباً عزيزة الوجود منها كتب شرقيّة عربيّة وسريانيّة وعبرانيّة وارسل فيليبوس بيرّالد (Ph. Béroalde) ناظرها وعدّة علماء الى انحاء ايطالية والمانية وفرنسة واليونان ليبحثوا عن المخطوطات في كنائسها واديرتها فيجلبوها ولو بأغلى الاثمان. قيل انهُ دفع ٥٠٠ دينار في تاريخ المؤرخ ناكيتوس وجدهُ في احد اديرة المانية. فلمّا طُبع اعلن البابا في مقدّمتهِ انهُ يجازي جزاء عظيماً كلّ من يأتيهِ بكتاب قديم مخطوط. وكان الملوك والامراء يتقرّبون الى لاون بارسالهم لهُ مخطوطات نادرة كان يدعو العلماء الى نشرها على نفقتهِ

ووجد لاون العاشر الكليّة الرومانيّة خاملةً دون مدرسة باريس وميلانو وبولونية فاراد ان تجاريها جميعاً بل تكون في مقدّمتها في تعليم كلّ العلوم ليس الدينيّة فقط كاللاهوت والحقّ القانوني بل المدنيّة ايضاً كالفقه والطبّ والهيئة والرياضيّات والفلسفة والادب والبيان واللغة والتاريخ الطبيعي وكان يدفع بسخاء رواتب كلّ المعلمين الذين بلغ عددهم فوق المئة وكان للعلوم البيانيّة ١١ معلّماً و٢٠ للفقه و١٥ للطبّ والمفردات الطبيّة وعلمٌ برّاً. وقد صُنفت بهمّتهِ تواريخ شتّى كان لها احسن وقع في عالم العلم

وكان الحبر الاعظم مولعاً بالفنون الجميلة وقد مرّ لنا ذكر اصلاحهِ للموسيقى الكنسيّة وكان يحبّ ان يسمع نغمات كبار الموسيقيين لترقى نفسهُ بها الى الله والامور العلويّة وكان يضرب بالقيثارة كداود الملك

وقد نبغ في ايّامهِ قومٌ من الشعراء الايطاليين كاريوستو وبمبو وفيدا وجيبرتي وسنازار كان البابا يثيبهم على ما تنتجهُ قرائحهم من القصائد الرنّانة

وما قولنا بولع لاون العاشر بفنّ التصوير فكفاهُ فخراً ان رفائيل المصوّر الشهير كان بجيرتهِ فصوّر لرومية تلك التصاوير التي ترين الى اليوم كنيسة مار بطرس والقصر الفاتيكاني وبعض المتاحف والتي يُدفع في ثمن الواحدة منها الوف الالوف من الفرنكات وقد مات رفائيل في ربيع شبابهِ وعمرهُ ٣٧ سنة يوم جمعة الآلام سنة

١٥٠ فاثر موتهُ اعظم التأثير في الحبر الاعظم فبكى في جنازته (اطلب صورتهُ)
ومثل رفائيل في نبوغهِ بالتصوير والنحت والهندسة معاصرهُ ميكال أنج الذي
رّف عصر لاون العاشر وأدّى للكنيسة من الخدم في هندسة كنيسة مار بطرس
تشها وتصاويرها ما جعل اسمهُ منتظماً في سلك اكبر نوابغ العالم

ونضرب الصفح عن عشرات آخرين من المصوّرين والنحّاتين والمهندسين الذين
نوا يساعدون ذينك المعلّمين وكثيرون كانوا من تلامذتهما ولهم في رومية اعمال
شار اليها بالبنان

فهؤلاء وغيرهم ايضاً كانت تلك النهضة الادبيّة التي جمّلت خلافة لاون
اشر وكانت داعياً لترقي ايطالية عموماً ورومية خصوصاً. فانَّ انتشار الصناعة كان
عياً لاتساع دائرة الاعمال التجاريّة والاقتصاديّة حتّى زاد عدد سكّان رومية وبلغ
ف عددهِ السابق

٢ مناداة لوتاروس بالاصلاح الموهوم

ورد في العدد ٢٥٩٠ من النشرة الاسبوعيّة الاميركانيّة في تاريخ ٧ تموز السنة
١٩٢ مقالة بهذا العنوان «ذكرى الاصلاح الانجيلي» افتتحها كاتبها بهذه الاسطر:

«في ١٨ من نيسان هذه السنة كان قد مرَّ ٤٠٠ حوْل على وقوف المصلح الشهير مارتن
ر طلباً للاصلاح الديني في وُرمس فني مثل ذلك اليوم يتذكّرهُ كلّ الذين نالوا الاصلاح
سيحي وكل محبّي ذيّاك الاصلاح لأن ذلك العمل العظيم يُعدّ في التاريخ من اعظم الاعمال»

كنّا نودّ ان نضمّ صوتنا الى صوت النشرة الاسبوعيّة وكلّ المتبذهبين بمذهبها
نتهم جميعاً بهذا الموسم السعيد بيد انّنا مهما تمنّا في ذكرى هذا الاصلاح وجدناهُ
سماً بلا جسم وقشرة دون لبّ. وهذا ما نحاول بيانهُ بفصل وجيز نعرضهُ على
ل من لا تغشى عيونهُ الاوهام فنقول:

اوّلاً انَّ الله اذا رأى في كنيستهِ فساداً فاراد اصلاحهُ لا بُدَّ ان يختار لها مُصلحاً
ضلاً بارًا. ثانياً ينبغي على المصلح المذكور ان تكون تعاليمهُ صالحة موافقة للوحي
تعليم الآباء. ثالثاً ويلزم ان يأتي ذاك الاصلاح بالنتائج الحسنة والاثمار الجيّدة.
الحال هذه الشروط الثلثة مفقودة لا اثر لها في الاصلاح البروتستاني

صورة لوتاروس

صوَّرها يوحنا هُلْبين معاصرهُ

قال لوتاروس في هذا كراتو (وجه ٣٥) : عندي ثلثة كلاب شريرة وهي الكنود (كفران النعمة) . والكبرياء . والحسد . فمن عضَّتهُ أحسنتْ عضَّتهُ .

ومزاجي يتدفَّق بالغضب . وعقلي يشحذ غرارهُ بالكيد .

وقريحتي تجود عند النيظ

١ بس لوناروس مصلحاً صالحاً بين امماً

لو أجلنا النظر في سيرة لوناروس الروحية من البروتستانت فضلاً عن الكاثوليك واجتبيناها من كتاباته وجدناها بئس السيرة التي يخجل منها كل رجل عاقل بارّ خائف من الله. وُلد مرتينوس لوناروس في أيسلابن من اعمال المانية سنة ١٤٨٣ من عائلة حقيرة وبعد دروسه ترهّب في رهبانيّة الاوغستينيّين سنة ١٥٠٨ ثم سيم كاهناً وأُرسل الى ورتمبرغ ليعلّم فيها الفلسفة وكانت في تلك المدّة تساوره وساوس فتشوّش عقلهُ وتبلبل راحة قلبه. وفي السنة ١٥١٢ نال امتياز اللقنة في رهبانيّته فاخذ منذ ذاك الحين يُظهر استبداداً في تعليمه فأبى يقنع لمشورة رؤسائه الداعين لهُ الى الخطّة المثلى

وقد اظهر لوناروس في ذاك الوقت ما طُبع عليه من شراسة الاخلاق لاسيّما الكبرياء والغضب فانّهُ جاهر بهما حتّى لم يخجل بتقديسهما حيث قال: «دون الكبرياء لا يستطيع الانسان عملاً حسناً». وكان يبرز غضبهُ الوحشيّ وسوء طباعه بمثل السيد المسيح الذي غضب على الفرّيسيين. واخذ منذ ذاك الحين يرشق بسهام لسانه البذيء كل من لم يوافقهُ على آرائه الغريبة فيلقّبهم بألقاب يستحي من لفظها الارباش تجدها في تاليفه

وفي السنة ١٥١٦ اراد الحبر الاعظم لاون العاشر ان يشرّف بيعة الله بتمجيد هامة الرسل في رومية ومواصلة بناء كنيسته الشيّدة على ضريحه فأرسل الى انحاء اوربّة واعظين ليدعوا المؤمنين الى التوبة ويمنحوهم غفرانات قانونيّة طالبين منهم بعض الصدقات لمساعدة ذاك المشروع التقويّ. فامتعض لوناروس غيظاً على الحبر الاعظم اذ انتدب لهذه الغاية الرهبان الدومنيكيين بدلاً من ذوي رهبانيّته وانتهز تلك الفرصة ليسلق ارباب الكنيسة والحبر الروماني نفسهُ بالشتائم مدّعياً انّهُ بذلك يتجاوز سلطتهُ ويبيع الروحيّات وذبي ما اعطى السيد المسيح لرأس كنيسته من سلطان الحلّ والربط في السماء والارض وانّ الغفرانات لا تمحو بذاتها الخطيئة وانّما تسامح فقط بالعقاب الزمني الذي تستوجبهُ الخطيئة المغفورة من الله. والدليل على انّ لوناروس أقدم على خطبه الثوروئيّة لغايات سافلة ما اقرّ بهِ بعدئذٍ في كتبه بقوله: «إني اقسمُ على حياتي وخلاصي اني لمّا تصدّيتُ لمناقضة الغفرانات ما كنتُ أُدرك معناها» فكان اذن فعلهُ هذا جهلاً وتعنّتاً وعجرفةً ليس غيرةً على الكنيسة وإصلاحها

ولما استدعاهُ اسقفهُ ثمَّ الحبر الاعظم ليؤدي الحساب عن اقوالهِ واعمالهِ اظهر الخضوع اولًا ثمَّ نشر راية العصيان واخذ ينفث في الكنائس وساحات المدن سموم غضبهِ على كلّ الاقداس ويحرّك مطامع امراء المانية على اوقاف الكنائس فسلبوا ونهبوا واحرقوا وقتلوا باغرائهِ . واذ ضربهُ الحبر الاعظم في ١٥ حزيران سنة ١٥٢٠ بالحرم لعصيانهِ احرق البراءة الرسوليَّة وفرَّ هارباً من وجه العدل مختفياً عند امير سكسونية فردريك صديقهِ والموافق لهُ على نفاقهِ

وبما ان الكبرياء يعاقبهُ الله بان يهمل الانسان الى اهوائهِ قلبهِ ما لبث لوتاروس ان خلع كلّ عذار فجحد كهنوتهُ وخدع راهبةً تُدعى كاترينا دي بور تزوَّجها سفاحاً وعاش معها بالزنا . ثمَّ اخذ يحرّض الكهنة على نبذ سُنَّة العزوبة على مثالهِ بل سمح لاحد امراء المانية بالاضرار اي الزواج بامرأتين معاً على عكس التعليم الانجيلي

هذا هو رجل الإصلاح الذي تفتخر بهِ الشيع البروتستانتيَّة . فمن شوكهِ على رأيهم تنبت العنب ومن عوسجهِ التين على خلاف قول الرب . وقد عرف نفسهُ حقّ المعرفة اذ أرَتْهُ يوماً كاترينا امرأتهُ السماء لامعةً بالكواكب فصرخ متأسفاً : ليس هذا من حصَّتنا !

٢ ليست تعاليم لوتاروس جديدة بالاصلاح

انَّ من يطَّلع على كتابات لوتاروس يجد فيها من الاضاليل ما كان متفرّقاً منها في كافَّة المرطقات السابقة . واوَّل ما بنى عليهِ صرحَ تعاليمهِ هذا المبدأ الفاسد انَّ الكتاب المقدَّس وحدهُ يحتوي كلّ دستور الايمان وحقائق الدين لينفي بذلك سلطة الكنيسة للتعليم كأن السيّد المسيح ارسل الى العالم اجمع تلاميذهُ بقولهِ : «اذهبوا واكتبوا» ولم يقل لهم «اذهبوا وعلّموا» . واضاف الى هذا المبدأ مبدأً ثانياً اشنع منهُ وهو حرّيَّة كلّ مؤمن ان يفسّر الكتاب المقدَّس على هواهُ ففتح بذلك باباً واسعاً لكلّ البدع والترّهات والتعاليم المتناقضة فينكر الواحد من اصحابهِ ما يثبتهُ الآخر وكلاهما على قولهِ مُلهَم من الروح القدس . تلك هي حرّيَّة الضمير او حرّيَّة الافكار ينبوع كل البدع والسفسطات

فعلى هذا الاساس الواهن بنى لوتاروس مذهبهُ . ولم يلبث ان يشفعهُ بتعاليم اخرى

الضلالُ فيها ظاهر لكل عيان بل هي والحقيقة على طرفي نقيض منها انكار لوتاروس لحريّة الانسان في اختياره للخير والشرّ كأنهُ مدفوع اليهما من الله وبهِ ينفي كلّ ثواب وعقاب ويجعل الخلاص والهلاك تحت رحمتهِ تعالى دون ملاحظة أعمالهِ الصالحة او الطالحة . ومنها تبرير الانسان بالايمان دون الاعمال مع رذلهِ للاعمال المجبورة وجحودهِ لمنفعتها امام الله حتّى بلغ الى هذا القول الفظيع : « أخطئ ما شئت وليقوَ ايمانك على خطاياك »

هذا الى تعاليم أخرى عديدة مُضلّة قال بها واوغلَتْهُ في بيداء الاوهام كإبطالهِ للذبيحة الطاهرة ولمناولة القربان الاقدس وكنفيهِ لحقيقة المطهر ولمنفعة الصلوات لاجل الموتى ولشفاعة القديسين واكرامهم وكإلغائهِ الاسرار المقدّسة والرُتب الكنسيّة تحت رئاسة الاساقفة والحبر الروماني . وخلاصة القول انهُ نقض كلّ العقائد التي علّمها ابن الله للعالم ودوّنها الرسل بعدهُ في اسفار العهد الجديد او سلّموها الى خلفائهم شفاهاً فبلغت الينا بتقليد متواصل لم تنفصم حلقاتهُ في توالي الاجيال

٣ ثمار اصلاح لوناروس الموهوم

لمّا اراد السيد المسيح ان يحذّر تلاميذهُ من الانبياء الكذبة اعطاهم لذلك قاعدة ثابتة يميّزون بها بين الصدّيقين المحقّين والاشرار الماكرين حيث قال : « ومن اثمارهم تعرفونهم » فلنلقِ بالنظر الى نتيجة الاصلاح البروتستاني فما هي يا تُرى الاثمار التي اتى بها لخير البشر ولسعادة الشعوب ؟

ما رفع لوناروس عقيرتهُ ليدعو الى اصلاحهِ الموهوم حتّى انفجر السدّ الضابط للشهوات البشريّة واندفع ذاك السيل الجحاف بل الطوفان العرمرمي فحوّل اوربة الى ساحة قتال طبّقت شرورُها وجه الارض فثارت تلك الحروب الدينيّة التي فعلت ما لم تفعلهُ حربنا الكونيّة الاخيرة ودامت نحو مئتي سنة

فليقل لنا المنتمون الى المذهب اللوتراني ماذا اصلح زعيمهم لوناروس ؟ هل اصلح المعتقدات ام اصلح الآداب ؟

اما المعتقدات فهي باقية راسية رسوّ الصخر الاصمّ في الكنيسة الكاثوليكية لم يزعزعها الاعصار البروتستاني فالكنيسة وحدها يمكنها ان تثبت معتقدها عملاً ونقلاً

وليس كلامنا هذا على بعض العبادات الاختياريّة الجارية في الكنيسة وغايتها إنعاش روح التقى والعبادة . وانّا نتكلّم عن الحقائق الجوهريّة وذات الاسرار الفائقة الطبيعة فان الكنيسة لا تصدّق على واحد منها الّا استنادًا الى اقوى البراهين واثبت البيّنات

وترى على خلاف ذلك الشيع البروتستانيّة تنمو وتتعدّد وتتشعّب وتتفتّت حتّى لم يبقَ منها عقيدة واحدة يتّفق عليها البروتستانت باجمعهم . فانّ لوتاروس نفسهُ رأى قبل موته ٢٤ شيعةً خالفت تعاليمهُ فندم على ما فات ولات حين ندم . وهذا ما كتبهُ بيدهِ الى صديقهِ غليوم پرافست :

« انيَ لأعلم يا اخي في المسيح انّ شكوكًا عديدة تحدث على حجّة الانجيل ينسبوها اليّ . ولكن ما العمل ؟ ليس مبشّر الّا ويدّعي انّهُ اعلمُ مني مئة ضعف واذا زجرتُهم لا يسمعون مني فانّ بيني وبينهم حربًا عوانًا اشدّ من عداوتي للبابا وهم الدُّ عداوةً عليّ منهُ »

ثمّ يحاول تبرير نفسهِ ولكن هيهات ان يصغي احد الى دفاعهِ عن ذاتهِ . فانّ مبادئهُ الفاسدة لا تزال كلّ يوم تقتم البروتستانت حتّى بلغ عددها في هذه السنين الاخيرة نيّفًا وثلاثة آلاف شيعة تسبّ الواحدة الأُخرى وتزيّف تعاليمها ولا تتفق الّا في محاربة الكنيسة الكاثوليكية مركز الايمان وعمود الحقّ

ولا ترى احدًا من الكاثوليك يترك دينهُ ليدين بالبروتستانيّة الّا لغاية بشريّة (الفلوس او العروس !) واعترف لوتاروس عينهُ بذلك حيث قال : اذا اراد البابا ان ينظّف بستانهُ من اعشابها الفاسدة يقلعها فيلقيها في جنينتي . وترى على خلاف ذلك الوفاً من وجوه البروتستانت واكليروسهم وعلمائهم المبرّزين يجحدون كلّ يوم مذهبهم ويضحّون كلّ ملاذّ الحياة والتنى وشهوات العالم والمناصب المنيفة لينضموا الى الكنيسة الكاثوليكيّة ليجدوا راحةً لضميرهم

وما قولنا عن الآداب فان الاصلاح اللوتراني كان لها آفةً وبيلة يوضحه ذاك المبدأ الفاسد الذي يردُّهُ كلّ ذي عقلٍ صائب اعني بطلان الاعمال الصالحة امام الله وعدم فائدتها للخلاص بينما الانجيل يدعو اليها في كلّ صفحة من صفحاتهِ لاسيّما اذ يقول السيّد المسيح لذاك الشاب الذي سألهُ ماذا يعمل من الصلاح ليرث الحياة الابديّة فقال لهُ : ان شئت ان تخلص فاحفظ الوصايا . وحيث يقول الدّيّان في اليوم الاخير للابرار انّهم باعمال رحمتهم نحو العطشان والجوعان والعريان والسجين ينالون السعادة

الابديّة . والعكس بالعكس اذ يقضي بهلاك الاشرار لإعمالهم الاعمال المبرورة

هذا ولا ننكر انّ بين البروتستانت يوجد ناس ادباء افاضل الّا انّ فضلهم من حسن عنصرهم وتربيتهم وجريهم على التعاليم المطبوعة في قلب الانسان من الله ليس من تطبيق اعمالهم على المبادئ البروتستانيّة . وكذلك لا ننكر انّ بين الكاثوليك اشرارًا واغا شرّهم لمخالفتهم تعاليم الكنيسة فقط . فلو جروا عليها لأصبحوا ابرارًا صالحين . والفرق بين الامرين ظاهر واضح

٣ ارتداد القديس اغناطيوس

هي الذكرى الثالثة التي اشرنا اليها في بدء هذه المقالة فحدثت في سنة وفاة لاون العاشر ونشر لوناروس رايةَ عصيانهِ . فكأنّ الله قصد ان يجمع بين هذه الامور الثلاثة ليبيّن لكنيستهِ انّهُ بفقدها كبير اجبارها وبما نالها من الاسف على تمرُّد احد ابنائها عليها وتمزيقهِ ثوب المسيح لم يهملها ويقيم لها حُماةً كُماةً بسلاء يردُّون اليها بالربى ما خسرتهُ في بعض البلاد

وُلد اغناطيوس دي لويلا من اسرة شريفة سنة ١٤٩١ ورُبّي احسن تربية مسيحيّة كامراء ذلك الزمان ولم يحصّل من العلوم الّا ما يحتاج اليهِ في خدمة ملكهِ فدخل بلاط الملك فرديننذ بين اولاد الاشراف واستعدَّ ليخدم وطنهُ في معامع الحرب التي كانت نفسهُ الكريمة تتوق اليها ليحرز لهُ فيها مجدًا اثيلًا كاجدادهِ . فتجنَّد في مقتبل العمر في جيوش الدولة وتنقَّل بزمن قريب الى اعلى مناصبها

وكان اغناطيوس يتلهَّب غيرةً على وطنهِ يتمنَّى وقوع حربٍ يعلن فيها عن نخوتهِ وشهامتهِ . فجاءت الظروف موافقةً لرغائبهِ . فلمَّا كانت السنة ١٥٢١ نشبت الحرب بين كرلوس الخامس خلف الملك فرديننذ وامبراطور المانية وبين فرنسيس الاوّل ملك فرنسة . فزحف الفرنسويّون على شمالي اسبانية وحاصروا مدينة پمپيلونة التي كان وُكل اليهِ امرها ومع قلّة ما كان لديهِ من الجنود اراد ان يدافع عنها الى آخر الانفاس الّا انّ اهل المدينة أبوا الّا الاستسلام الى العدوّ لما رأوا من عدد جنودهم وعظم قوّتهم وشدّة اسلحتهم ففتحوا لهم المدينة . فلم يشاء اغناطيوس ان يوافق اهلها على فعلهم وتحصَّن في القلعة مع من رآهم من جنودهِ متحفّزين للدفاع عنها

فما عمَّ الفرنسويون ان نصبوا على اسوارها السلالم وصوَّبوا اليها كرات مدافعهم بينما كان اغناطيوس بصوته ومثله يستنهض همم جنوده ويستقتل لردّ غارات العدوّ الى ان فتح بقذائفه ثلمةً من الاسوار وأصلى الاسبانيّين نارًا حاميةً فأصيب اغناطيوس بقذيفةٍ كسرت عظم ساقهِ اليمنى ووقعت على اليُسرى حجرةٌ ضخمة جرحتها جرحاً بليغاً فوقع صريعاً على الحضيض بعد ان ابلى احسن بلاء مدَّة سبع ساعات متواصلة. فاستأمن جنوده على رغم منهُ اذ كان يرغب ان يموت موت الابطال في ساحة القتال . فدخل الفرنسويون القلعة ظافرين الَّا انهم أعجبوا من بسالة قائد الاسبانيّين وعاملوهُ بكل لطف واكرام وبعد ان ضمدوا جراحهُ حملوهُ في هودج واوصلوهُ الى قصرهِ . وكان يوم سقوطهِ جريحاً موافقاً لاحد العشرة في ١٩ ايَّار كأنَّ الروح القدس اراد بتلك الجروح المادّيَّة يشفي نفسهُ ويعدُّهُ لجهاد اعظم واشرف عن كنيستهِ في نفس اليوم الذي غيَّر قلوب التلاميذ في علّيَّة صهيون وسلَّحهم بقوَّته ليغلبوا العالم كسيّدهم المسيح . وفي نفس السنة التي هيَّج ابليس فيها جنودهُ ليحملوا على الكنيسة مؤمّلاً بجملتهِ ان تقوى عليها هذه الدفعة ابوابُ الجحيم فتبطل مواعيد ابن الله

. ولا حاجة ان نتَّسع في ما جرى لاغناطيوس في قصرهِ اذ كان طريح الفراش واشرف على الموت لولا أنَّ هامة الرسل القديس بطرس تراءى لهُ في المنام ووعدهُ خيراً وشفى جرحهُ بمجازاة لقصيدةٍ كان اغناطيوس نظمها لاكرامهِ . لكنَّهُ رأى في قِصَر احدى ساقيهِ عاراً فطلب ان يستأنف الجرَّاحون لهُ عمليَّة مؤلمة جداً تحمَّل مضضها بكل صبر . ثم لزم الفراش أيَّاماً ريثما تصحُّ الساق واذ لم يجد اذ ذاك في قصرهِ ما يتسلَّى به في ساعات الفراغ الَّا كتاب سير القدّيسين عمل فيه مَثَل اولئك الابطال فقصد ان يحذو حذوهم . وما فتئ ان قام بوعدهِ وباشر تلك الاعمال العجيبة التي نقرأها في سيرة حياته ولاسيَّما انشاؤهُ للرهبانيَّة اليسوعيَّة التي ردَّ بواسطتها اقطاراً عديدة الى حجر الكنيسة وعلى الخصوص في المانية وسويسرة فضلاً عن امم الوثنيين في اقاصي العالم

فكان اذن جُرح اغناطيوس علَّة لارتدادهِ وسبباً لما حصل بعدهُ من الخير العام في الكنيسة . وذلك ما حمل اهل اسبانية عموماً واقاليمها الشمالية خصوصاً ان يقيموا